القبلة القاتلة

بلغ السيل الزُّبى ، وفاض الأسى حتى غمر السهول والرُّبى ، نفثة مصدور لا بد أن تنفجر ، وكبتة محزون قدر لها أن تختزنها النفس حتى تفيض وتنتشر . ألا يانسيم الفجر سلم على قبر الشهيد ، ويا قطرات الصباح انزلى برداً وسلاماً على غصن ذواه الموت وما كان يريد . كانت آخر أحداث حياته قبلة دامية ، وآخر خطوة خطاها مروق بين ذراعى غانية ، فغمضت عيناه وقد انطبع فيهما بالغ السحر ، وصعدت الروح فى آهة تضمنت ما فى الحياة من ظلم وغدر . يا نسيم الليل بلغ صديقى عذرى ، وقل له إننى لا أغدر بوفاء ولا أبوح بسرّه وسرّى ، بل هى خطوة أرسلها لأرفّه عن نفسى وليتعظ غيرى .

منذ شهور قلائل قضى صديق حبيب فى ظروف غريبة مريبة . كان هذا الصديق مهندساً ناجحاً أقبلت عليه الدنيا بكل ما فيها من جاه ومال وغرام ، وكان مرموقاً من الجنس الآخر لدرجة استدرت حسد محبيه قبل منافسيه . كان يصل إلى غرضه دائماً ولو بدا بعيد المنال ، غير مبال بخطر يتعرض له فى سبيل الوصول والوصال ، يطأ على الورقة ذات المائة أو عشرات منها وهو جالس إلى المائدة ذات الغطاء الأخضر ، ويبتسم فى استخفاف إذا ذهبت

مع الريح إلى غير عودة ، والله يعلم ماذا تخفى بسمة هؤلاء المغامرين وهم جالسون إلى مائدة القمار . إذا لاحظت أحدهم وهو يعض شفته السفلى فى هوادة مبتسما بالنصف الآخر من فمه وهو يهنئ رابح الشوط ، أيقنت تماماً من العرق المتصبب على جبينه غير المتجعد ، ومن البريق المنطفئ فى عينه الزائغة ، أنه يبذل مجهوداً هائلا فى سبيل إخفاء شعوره الحقيق . ولا أظن تكرار هذه الظاهرة إلا مؤدياً إلى وضع أعصابه وشرايينه وقلبه الفتى تحت ضغط مستمر يرهقها ويشدها إلى أقصى درجات احتمالها . وقد تتحمل هذا الجذب والضغط طويلا أو قد يكون حكمها كالوتر المشدود الذى ينقطع فجأة وهو يرسل أحسن النغم .

كان صديق يرسل أحلى نغمات حياته عند ما فاجأه القدر الخؤون ، وكانت — أعنى هى — أروع غزواته ، حتى لقد كان يحرص على إخفائها من الأعين . فلم يكن أحد يعلم هل هى عزلاء أم مسلحة بقيد الزوجية الذى يرغم المتمنى ذا الضمير الحى أن يغض من بصره ويتجه صوب الأفق باحثاً عن صيد جديد . ولكن بعض الذين لمحوها عن بعد فى رفقته بالغوا فى التحدث عن سحر حلال صُبَّ فى عينين والهتين مدنفتين ، وعن صدر متطلع إلى العلا تفخر السماء بتضرعه إليها ، وعن غصن البان ورشاقة الغزلان فى جسم جلَّ من خفَّض به إلى مستوانا البشرى ،

من تجشؤ رقيق عقب أكلة ثقيلة ، أو تخلص من فضلات الجسم عندما يطلع الصباح على الدنيا النائمة .

كانت مقابلتهما الأخيرة فى خفية عن الأعين ، فحمل خله الغالى فى سيارته الأنيقة وذهب به فى اعتزاز وفخار إلى شقة استأجرها خصيصاً لمغامراته . وكانت ترضى بمرافقته إلى هذا الركن الحبيب فى استسلام التى تأمن عوادى الزمان : فهو رجل مكتمل قد تجاوز الأربعين بقليل ، ويبدو أمامها معبداً ضخما نقشت على جدرانه تراتيل الحب والغرام ، ودعمت حيطانه بكل ما تشتهى المرأة من حلال وحرام . كانت لا تتصور أن هذا الصخر الحى يمكن أن تنال منه الدنيا ، فهى أعلم بصلابته وقوته المتدفقة التى تتضاءل بجانبها الأمواج والشلالات .

رشف من كأسها ورشفت من كأسه ، وكلاهما حلو المذاق ، وسبحان الواهب الرزاق . يعطى ثم يأخذ ، ويمهل العبد أو لا يمهله ، جبار إذا أخذ ، مذل إذا نبذ ، عزيز كريم إذا غفر ورحم . هوى هذا المثل الحى فجأة وهو فى أعلى درجات الهيام والفوران ، وتحطم التمثال بين ذراعى من كانت منذ ثوان تتأمل خلاله فى إبداع الخالق ؛ ولا بد أنها كانت تقول لنفسها إن صانعه ومبدعه لا بد واقيه من شر الأعين والإنس والجن ، ولا بد أنه كتب له الخلود ، غير عالمة أنه قادر أن يأتى بمثله فى لمح البصر أو أقل ، وهو على كل شىء قدير .

ولا بد أن المسكينة جزعت لهذا الهمود الفجائى فنادته فى حنان : ما دهاك ؟ فلما لم يجب قفزت من الفراش لتسعفه برشفة ماء من كوب قريب ، فلما أدركت أن الفم الذى ناداها بين شفتيها بأعذب الأسماء منذ ثوان قلائل قد خرس لسانه إلى الأبد ، بدأت فى تدبير أمرها لتنقذ نفسها من هـذه الورطة الساحقة . وحواء منذ بدء الخليقة لا تعميها الدموع عن مصلحتها الخاصة . وإنى أتخيلها فى وحدتها القاتلة مع من كان ملء الدنيا منذ قليل ، وقد وقفت أمام المرآة المتواضعة تتأمل جسدها المرتجف الذى فضحه جلال الموت ، وتستمع إلى همس الشيطان فى أذنهـا يقول : « خلصى نفسك إن كنت قادرة . تأملى هـذا الجسد الهاوى والنحر العارى ! يا لهفى على نهدك الذى طالما تحدى السماء ، ويا أسفى على بيتك المقدس يرتعش خوفاً وفرقا بعد أن كان يهتز وجداً وشبقا ، وسلام على جبل الزهرة من جسمك وقد كساه عرق الخوف البارد بعد أن كان يغمره فيض من الدفء والحنان ! مسكينة أنت . سوف أرشدك إلى ما تفعلين فأطيعينى إذا شئت الخلاص ! » .

وأطاعت وحى الشيطان فلبست ملابسها فى سرعة وهى ترتجف ، ثم جرت إلى الباب وفتحته فى حذر ، ودلفت إلى الشارع حيث امتزجت بالراحين والغادين واختفت إلى الأبد من أفق آفل لتبزغ فى أفق جديد بعد زمن قصير أو طويل عند ما

تطغى على شعورها رذيلة النسيان . ولقد بلغ حبها لنفسها أقصى الدرجات وأقساها ، فلم تحاول حتى الإرشاد إلى مكان جثته ولو بطريق لا يكشف سترها ، بل تركته مسجًّى على فراشه حتى اكتشف مكانه بطريق المصادفة وقد كاد يتطرق العفن إلى الجسم الذى تسلمته وهو أكمل ما يكون صحة ونضارة وشباباً وطراوة .

* * *

أما الحكاية الثانية فبطلها رجل فاضل جاوز الخمسين وعاش طول حياته زوجاً مخلصاً وفيا وأباً باراً ، يحنو على أولاده بطريقة نادرة بين الآباء ، كانت الدنيا مقبلة عليه بالمال والجاه ، وكان عاقلا رزينا ، أعجبنى فيه دائماً قامة مديدة ومشية متئدة ، ورأس مرتفع يرمز إلى أى شيء إلا الخيلاء والاعتداد بالنفس ، فقد كان رحمه الله متواضعاً رغم غناه ، يقبل عليك من بعد فى بسمة مشرقة مهما كان فارق السن والمركز بينكما ؛ استغواه الجسم الشاب البض عند ما شاخت الخليلة وترهلت من كثرة الحمل والولادة ، ولم يعدم عظيم مثله من يدله على مكان الثمرة المحرمة من الدنيا الواسعة ، فتعرف إلى واحدة شاء سوء الحظ أن يموت فجأة بين أحضانها فى إحدى مقابلاتهما العديدة . ولكن بنت حواء كانت هذه المرة معقولة فى تصرفها . فبعد أن تغلبت على هول الصدمة استعانت مع البعض على إلباسه ملابسه كاملة ، ثم اتصلت بأحد أصدقائه وقالت إن فلاناً كان يزورنا فإذا به يصاب بإغماءة شديدة

لم يفق منها حتى الآن فاتصل الصديق بالعائلة وأخطرهم بالمصاب فى لهجة مخففة لأنه كان يعلم كل ما وراء الستار ؛ ولكن الخبر سرعان ما تسرب ، ولم يكن المشيعين حديث سوى هذا الطارئ المفاجئ الذى كان يمكن حدوثه لأى واحد منهم لولا سوء الحظ ! ولا تعجب لماذا تقلل أمثال هذه الأحداث من قيمة التوفى فى نظر الزوجة والأولاد والأهل والأصدقاء . ففى هذه الحالة بالذات نسى المشيعون النعش المتهادى ، وتأبط كل صديق ذراع زميله وراحا يتهامسان عن عجائب المصادفات سائلين الله حسن الختام . ولم يكن يبدو على أنجال الفقيد أى تأثر مع أن والدهم كان أعظم الآباء جميعاً . ولا شك أن عويل الزوجة والبنات لم يكن يتناسب مع فداحة المصاب . وقد أمكن لأذنى أن تحكما على هذا بصورة قاطعة .

* * *

وحدثنى صديق طبيب عن نفسه — وهو لا يزال حياً بحمد الله — وكنا نتذاكر أمثال هذه الحوادث الدامية ، فقال : إنه كان قبل زواجه قد استأجر شقة متواضعة لمغامراته وكان لا يعرف بمكانها سواه ، فخطر له وهو عائد من دار السينما فى ذات ليلة أن يقضى ليلته هناك فى براءة تامة كأنه فى بيته تماماً . وبعد ما خلع ملابسه استلقى على فراشه وتنفس من عبير الحرية المحيط برأسه قدر ما استطاع ، ثم راح فى إغفاءة قصيرة صحا بعدها فجأة وقد صور له الوهم أن هبوطاً فجائياً على وشك الحلول بجسمه وقلبه ، وتخيل

نفسه وقد فارقت الروح الجسم ، وارتمى الجسد الفانى مهملا على فراش أشعث غير منظم ، وقد لا يعثر عليه حتى يدب فيه البلى وتفوح رائحته لدرجة تسترعى انتباه الجيران . ارتدى الزميل العزيز ملابسه فى سرعة عظيمة وجرى نحو باب الشقة ومنها إلى درجات السلم . ويقول عن شعوره إذ ذاك إن كل آماله وهو الطبيب الطموح تضاءلت وانكمشت إلى أمنية واحدة تمناها من الله وهى أن يموت على باب العمارة بجانب سيارته حتى يعثر عليه فى الوقت المناسب دون أن يثير مصرعه المزعوم القيل والقال . ولما تحسس مكانه من السيارة وأخذ يقودها متجها صوب منزل والديه داخلته الطمأنينة مرة ثانية ، وأقسم بينه وبين نفسه ألا يعود إليها . وفعلا استغنى عن شقته السرية وباع أثاثها وفكر فى التستر بين أحضان الزوجة الوفية

* * *

ما سر هذه المقالب التى يدبرها القدر ، لتكون فيها عبرة لمن يعتبر ؟ الواقع أنها نوع من الميتة الفجائية يحدث فى أى مكان أو أى ظرف . فقد تتعطل الآلة البشرية فجأة فى المنزل أو فى الطريق أو فى مقر العمل وصاحبها فى أعلى درجات الطمأنينة والصحة والسعادة . ويتعرض لهذه الميتة الفجائية الأشخاص الذين قاربوا الأربعين أو جاوزوها بكثير أو قليل ، ويكونون مصابين بارتفاع فى ضغط الدم أو تصلب فى الشرايين يجعلهم

عرضة لداء الذبحة الصدرية أو الإصابة بانسداد شرايين القلب ، والأخير هو السبب الأكبر لهذه الميتات الفجائية التى تسمع عنها كل يوم . فإذا ما تصلبت من القلب شرايينه نتيجة ارتفاع مزمن فى ضغط الدم أو بسبب السن كان الشخص عرضة للإصابة بالانسدادات الشريانية ؛ فإذا حدثت الإصابة فى المخ مثلا نشأ عنها الشلل ، وإذا حدثت فى القلب كما أسلفنا توقفت النتيجة على حجم الشريان المصاب ، فإذا كان صغيراً شكا المريض من نوبات ألم هائلة هى التى نسميها بالذبحة الصدرية . أما إذا كان الشريان أساسياً كبيراً فإن القلب يقف فجأة بعد أن يشهق المريض شهقة مؤلمة قد لاتتكرر . وتحدث هذه السُدّة القلبية الملعونة والمريض فى أحسن حال . فقد يكون جالساً يستمع إلى الراديو أو يتسامر مع خلانه وأصدقائه أو يداعب أولاده أو حليلته أو خليلته ، والمسألة لا تعدو القسمة والنصيب يوزعها القدر على كل بحسب حظه . فإذا أصاب السهم أثناء خلوة غير شرعية كانت المسألة سوء حظ لا أكثر ولا أقل . ولكن أليس سوء حظ أيضا أن يفاجأ الشخص بالنهاية المحزنة وهو يداعب أولاده الأبرياء فينطفئ بريق عينيه وقد انطبعت فيهما تفاعلات وجوه هؤلاء الساكنين الذين تغدر بهم الدنيا أول مرة ؟ وأليس سوء حظ أيضاً أن تكون عائداً من عملك وقد أتممت صفقة هامة سوف تتفتح لك بعدها

أبواب السعادة ثم إذا بالمفاجأة غير السارة تحدث فى الطريق أو عند عتبة الدار ؟

إن كل ما أقصده بهذا المقال هو التلميح للذين جاوزوا الأربعين بالتحفظ فى مغامراتهم . وإنى أستميح لهم العذر أحيانا لأن الزوجة العزيزة قد تهمل تتبع أصول فن اجتذاب الزوج عند ما تطول المعاشرة ويعتاد أحدهما الآخر . ولكن لو تذكر الرجل أن كل النساء سيان إلا من الطلاء السطحى ، وأنه متى ارتوت غريزته الجنسية انهارت أمام عينيه تماثيل الجمال التى تخيلها فى كل نساء الدنيا ، لقنع بركن الزوجية الخالد وانزوى فيه بقية عمره .

لين العظام

لا بد أن يكون لين العظام قد لازم الطفل منذ بدء الخليقة ، فقد أثبت الفحص وجوده فى الهياكل العظمية لأطفال عاشوا فى العصر الحجرى ، وثبت أيضا أنه عاصر الدولة الرومانية القديمة ومصر الفرعونية وسار مع الزمان ينال من بنى البشر فى غير مقتل ، اللهم إلا إذا كان التشوّه الجسمى الذى يحدثه يعتبر عند من يعنون بحسن المنظر وجمال القوام ، طعنة نجلاء فى صميم الكيان المادىّ الذى من طبعه حب الزهو والخيلاء . فهو يسبّب تشوها فى شكل الرأس وفى الأطراف وعظام الصدر والعمود الفقرى مما يولد فى المصاب به شعوراً بالقصور ، لأنه قد يشعر بأنه لا يتمتع بالانسجام الجسمى كغيره من الأطفال ، ويجد أنه لا يقوى على الجلوس والوقوف والمشى دون مساعدة بينما من هم فى مثل سِنّه يلهون ويمرحون . وتتأخر أسنانه فى الظهور فيعجز عن مضغ الطعام ويزدرده كعجوز أتى الزمن أو المرض على صَفّى اللؤلؤ اللذين زين الله بهما فكّيه . وهو قلق فى يومه مضطرب أثناء نومه ، كثير العرق ، يحك رأسه فى الوسادة فتبدو فى مؤخرته فى كثير من الأحيان رقعة خالية من الشَّعْر نتيجة هذا الحك المتواصل . ولعل هذه الأعراض العصبية أول ما يلفت النظر فى الطفل

الكسيح ، ويجب ألا ننتظر ظهور التشوهات الجسمية لتشخيص الداء ، إذ كلما بدأ العلاج مبكراً كان ذلك فى صالح الطفل . وتوجد اختبارات تساعدنا على التشخيص قبل ظهور تغييرات مميزة فى الهيكل العظمى للطفل ، فمثلا إذا قدرنا مستوى الجير والفوسفور فى الدم وجدناه هابطا ، وإذا صوّرنا العظام بوساطة الأشعة السينية (أشعة اكس) وجدنا بها ما يثبت وجود الداء ، فى حين قد يبدو الطفل طبيعياً إلى حد كبير .

ومنذ عام ١٨٩٠ ثبت أن التعرض لأشعة الشمس له علاقة هامة بلين العظام ، فهناك نوع خاص من الإشعاعات يطلقون عليه اسم الأشعة فوق البنفسجية وهى أكثر ما تكون فى الآفاق العالية مثل قمم الجبال ، وتقل فى الأجواء التى تكثر فيها الرمال والأتربة والرطوبة التى تمتصها قبل وصولها إلى سطح الأرض ، وهى لا يمكنها اختراق الزجاج العادى ، ولذا كان من العبث وضع الطفل فى غرفه مشمسة ولكن مغلقة النوافذ ، وهى لا تخترق الجلد الأسود ، ولذا يكثر لين العظام بين الأطفال ذوى البشرة السمراء أو السوداء . وكلما أثقلنا الملابس على جسم الطفل أقللنا من إفادته من أشعة الشمس . إذا أدركنا كل هذا أمكننا أن نفسر كثرة حدوث لين العظام بين الأطفال المصريين بالرغم من أن الأم المصرية من أكثر أمهات العالم المتمدين إقبالا على إرضاع طفلها . فالمعلوم أن لبن الثدى لا يحوى من الفيتامين د — وهو

الفيتامين المضاد للين العظام — إلا كميات ضئيلة جدا لا تكفى لوقايته من مرض الكساح ، ولكنه يحوى كمية أكبر من فيتامين د غير الفعال ، والذى لا بد من تعرضه للأشعة فوق البنفسجية حتى يتحول إلى فيتامين د فعّال . وقد يقول قائل إن الطفل المصرى لا تنقصه أشعة الشمس إذْ ما أكثرها فى بلادنا ، وأن متوسط عدد الساعات المشمسة فى فصل الشتاء هو ثمانى ساعات يمكن للطفل خلالها أن يتمتع بأوفر قسط من الأشعة فوق البنفسجية . ولكن الواقع أن شمسنا المصرية التى يحسدنا عليها العالم فقيرة فى أشعتها فوق البنفسجية ، وذلك نتيجة امتصاص هذه الأشعة بوساطة ذرات الرمال والغبار والرطوبة المشبع بها جونا المصرى . وإذا أضفنا إلى هذا وجود عوامل أخرى مثل سوء التغذية والمسكن غير المطابق للشروط الصحية من حيث الشمس والهواء والازدحام بالساكنين أدركنا لماذا تدور الدائرة على الطفل المصرى فى كثير من الأحوال بالرغم من أن الله قد وهبه فضاء مُشْمِساً وصدراً رحباً زاخراً بخيراته .

ومما لا شك فيه أن الطفل الذى يرضع ثديا آدميا أقلّ عرضة للإصابة بمرض الكساح من الذى يرضع لبنا حيوانياً ، وذلك لا يرجع كما أسلفنا إلى وجود الفيتامين د بكثرة فى اللبن الآدمى ، بل لأن تركيب هذا اللبن يناسب قوة هضم الطفل فيفيد أكثر من أملاح الجير والفوسفور الموجودة فيه . أما اللبن الحيوانى فإنه

بالرغم من احتوائه على هذه الأملاح بنسبة تعادل ثمانية أمثالها فى اللبن الآدمى فإن الجهاز الهضمى للطفل يعجز عن تحويلها وامتصاصها فلا يصل منها إلى الأنسجة إلا النزر اليسير . لذا كان واجبا أن نبدأ بإعطاء زيت السمك أو أحد مستحضراته المركزة فى سنّ مبكرة لجميع الأطفال الذين يرضعون لبناً حيوانياً .

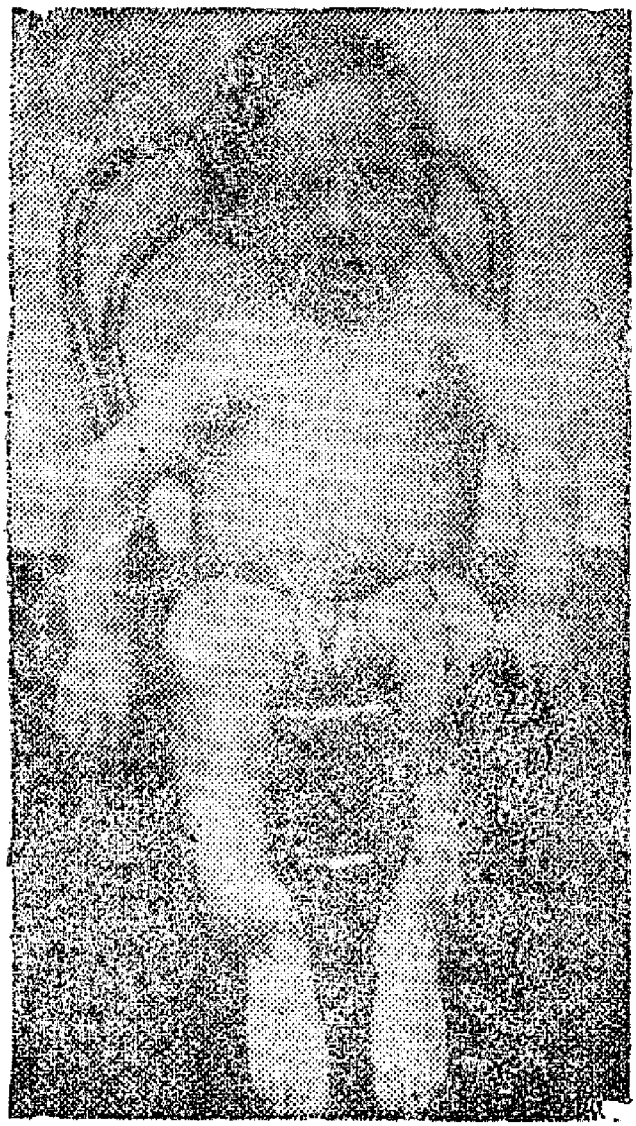

(طفل كسيح مشوه)

ونقطة الضعف الأساسية فى لين العظام هى عدم قدرة الطفل على ترسيب أملاح الجير فى عظامه . فقد تكون كمية الجير فى طعامه كافية وتصل نسبته فى الدم إلى المستوى الطبيعى (وهو من ٩ — ١١ ملليجرام فى المائة) ، ولكنها لا ترسب فى العظام نتيجة نقص الفيتامين ء فتكون النتيجة عظاماً بلا جير تلتوى تحت ثقل الجسم محدثة تشوهات ظاهرة وقد تتكسر فى أكثر من موضع . فإذا أعطينا الطفل أحد مستحضرات الفيتامين ء كزيت السمك مثلا ترسبت أملاح الجير وعادت للعظام صلابتها . وإذا نظرنا إلى صورة الأشعة قبل العلاج وبعده وجدنا العظام فى الحالة الأولى باهتة ونهايتها مجوفة مشرشرة وكأنها كأس فارغة أومكنسة بالية فى حين أنها فى الحالة الطبيعية خط مستقيم سميك يتحدى عوادى الزمان . فما أشبه الطفل الكسيح بطفل غارق فى بركة مركزة بأملاح الجير وهو عاجز عن الارتشاف من المنهل العذب حتى نقدم له فيتامين د وهو بمثابة الدلو الذى يغترف به ليملأ الكؤوس الفارغة فى أطراف عظامه .

وقد اكتشف حتى الآن أحد عشر نوعا من الفيتامين د ولكن اثنين منها فقط لهما قيمة عملية وهما : فيتامين د$_2$ فيتامين د$_3$. أما أولهما فمن أصل نباتى وأكثر ما يوجد فى الخميرة التى لا بد من تعريضها للأشعة فوق البنفسجية ليتحول ما تحتويه من عنصر الأرجوستيرول إلى فيامين ء فعّال . وأما الثانى فمن أصل حيوانى

وهو النوع الذى يوجد فى زيت السمك وصفار البيض واللبن . ويوجد أيضا فى الطبقة الدهنية من جسم الإنسان ، ولكنه لا يكون فعّالاً إلا بتعريض الجسم لأشعة الشمس . ويتساوى النوعان ـ الحيوانى والنباتى ـ فى مفعولها كعلاج لمرض الكساح .

ويكثر حدوث لين العظام فى السنتين الأوليين من العمر وخاصة بين الشهر الثالث والثامن عشر . وينذر حدوثه قبل الشهر الثالث ، ولو أن هناك حالات نادرة شخّصت عقب الولادة أو بعدها بأسابيع قلائل وخاصة إذا كانت الأم مصابة بلين عظام الحامل . ويحدث لين العظام مبكراً فى التوائم والأطفال المبتسرين (أى المولودين قبل الأوان) لأنهم ينمون بسرعة تفوق السرعة التى ينمو بها الطفل الطبيعى . ولذا يجب أن يبدأ معهم العلاج الوقائى من الشهر الثانى حتى نحول دون إصابتهم بلين العظام .

ولين العظام فى ذاته قابل للعلاج ، ولكن إذا كان تشوه الصدر كبيراً لدرجة تعوق عمل الرئتين تعرض الطفل للالتهابات الرئوية والنزلات الشعبية وقد يودى هذا بحياته . وكثيراً مانشاهد أطفالا تقوست سيقانهم نتيجة إصابة شديدة سابقة ، ويكون هم الوالدين الأكبر هو الاطمئنان على مستقبل طفلهم من حيث التشوه الجسمى ، وخاصة إذا كانت المصابة أنثى ؛ ولهؤلاء أقول إن معظم هذه التقوسات تختفى بمرور الوقت مهما بدا هذا مستحيلا فى أول الأمر ، ولكن فى الإصابات الشديدة لا بد من عرض

الطفل على إخصائى فى جراحة العظام ليصلح ما أفسد الداء .

وقد سبق أن ذكرنا أن العلاج الوقائى يجب أن يبدأ مبكراً فى الأطفال الذين يتغذون تغذية صناعية وفى التوائم والأطفال المبتسرين . ويكفى لهذا إعطاء الطفل نصف ملعقة صغيرة من زيت السمك ثلاث مرات فى اليوم أو خمس نقط من أحد مركباته المركزة مرتين فى اليوم ابتداء من الشهر الثانى من العمر . ولا بأس من أن نذكر أن الجرام الواحد من زيت السمك يحوى ١٠٠ وحدة من الفيتامين د ، فى حين أن الجرام الواحد من المستحضرات المركزة — مثل الفيجانيول والفيوسترول والكالسفيرول يحوى ١٠,٠٠٠ وحدة فى الجرام الواحد أى ٢٢٣ وحدة فى النقطة الواحدة . فإذا قدرنا أن العلاج الوقائى يلزمه حوالى ألف وحدة فى اليوم كانت خمس نقط وافية بالغرض ، ولو أننا نزيدها إلى الضعف فى الحالات التى سبق ذكرها بالنسبة لتوقع شدة الإصابة .

أما العلاج الشافى فتلزمه كميات أكبر . فمثلا تعطى من زيت السمك ثلاث ملاعق صغيرة فى اليوم ومن المركزات خمس نقط ثلاث مرات فى اليوم . ويبدأ التحسن — كما يظهر من صورة الأشعة وارتفاع مستوى الجير والفوسفور فى الدم — فى اليوم الثانى عشر .

وقد وجد أن إعطاء كميات كبيرة من الفيتامين يؤدى إلى شفاء أسرع ، فمثلا إذا أعطى الطفل ٥٠ ألف وحدة فى اليوم

ظهر التحسن فى أيام قلائل . وقد ابتدعت أخيراً طريقة علاج لين العظام بجرعة واحدة من الفيتامين د مقدارها ٦٠٠ ألف وحدة تعطى دفعة واحدة فى العضل أو عن طريق الفم . وهـذه نعمة كبرى على الطفل والوالدين ، فهى تغنيهم عن قيام معركة الدواء بضع مرات فى اليوم لبضعة أسابيع أو شهور ! وقد أثبت الفحص بالأشعة السينية أن ترسيب أملاح الجير فى العظام تبدأ من الأسبوع الثانى ويتم الشفاء فى ستة أسابيع بعد تناول الجرعة .

أما العلاج بالأشعة فوق البنفسجية فواف بالغرض فى معظم الحالات ولـكنه يصبح لا مبرر له بعد علاج الجرعة الواحدة الذى قلب أوضاع علاج هـذا المرض والذى أتى بوسيلة عملية للشفاء إلى عتبة كل منزل به إصابة بمرض الـكساح .

الزهرى الوراثى

قد ينتقل الزهرى إلى الطفل عن طريق قبلة دامية من أحمق مصاب بالمرض دون أن يوحى إليه عقله الراكد وضميره الميت أنه كائن حى ملوث شديد الخطر على نفسه وعلى غيره . وقد يأتيه المرض من مرضع مصابة على ثدييها قرحات فتعطيه السم فى الدسم ، وقد توحى أحط درجات البهيمية إلى مربية أن تمارس مع طفلها ما يرضى غرائزها الجنسية وهى تعلم أو لا تعلم أنها تسقيه الداء علقما مرا . وقد تصاب الأم بالمرض بعد الولادة بقليل أو كثير من زوج أمنت له وسلمته زمامها ، وبينما هى تقبل على طفلها كعادتها تدلله وتقبله وتقضى حاجاته ، إذا بالبرىء يصبح حطاما آدميا على حين فجأة ، وهى لو علمت لتمنت أن تموت قبل هذا وتصير نسيا منسيا ، وقد تكون وساطة العدوى كوبا أو زجاجة رضاعة ملوثة بجرثومة المرض فيزدرد الطفل الداء مع الغذاء ويا ليته ما فعل . وتكون الإصابة فى هذه الحالات جميعها بجرثومة الزهرى المكتسب الذى يصيب الكبار ، وهى أشد فتكا من جرثومة الزهرى الوراثى التى يظهر أن مجرد مرورها فى خلايا جسم الجنين يقلل من بطشها ، حتى ليقال إن احتمال العدوى منها بالملامسة ضعيف جداً . وكثيراً ما يشاهد فى عيادات الأطفال الخارجية أطفال أصحاء يدللون ويقبلون رضيعاً مصاباً بالزهرى دون أن تنتقل

إليهم العدوى . ويروى جون تومسون الحجة فى أمراض الأطفال أن أطفالا سليمين طعموا ضد الجدرى عفواً بنفس السلاح الذى طعم به أطفال مصابون بالزهرى الوراثى ومع ذلك لم ينتقل إليهم المرض .

وتكون العدوى بالزهرى الوراثى فى معظم الحالات عن طريق الأم ، وحتى إذا كان الوالد مصاباً به فإنه لا ينقل العدوى إلى الجنين إلا بعد أن تصاب به الأم قبله . ولذا يمكننا تبرئة الوالد فى معظم الحالات ما لم نجد به علامات إصابة حديثة فى أعضائه التناسلية أو جسمه أو فمه . وإذا أصيبت الأم بالزهرى أثناء الحمل فإن المرض ينتقل إلى الجنين فى تسعين فى المائة من الحالات ، إلا إذا كانت الإصابة فى آخر مدة الحمل ، فقد يولد الجنين قبل أن تنتشر الجرثومة فى دم الأم — وهذا يحدث فى الدور الثانى من المرض — فينجو فى آخر لحظة . وكلما كانت الإصابة أبعد من الدور الحاد وأقرب إلى الدور الثالث أى المزمن ، كانت فرصة الطفل للنجاة أكبر ، أو على الأقل تكون العدوى أخف وطأة . وهناك قول بأن عدوى الجنين تحدث خلال النصف الثانى من مدة الحمل ، ولكن رغم هذا يجب أن نتوقع احتمال العدوى منذ الشهر الأول من الحمل ، فنبدأ العلاج الوقائى مبكراً . وهناك أيضاً ظاهرة لا تخلو من طرافة وهى تأثير الحمل المتكرر على نسل الوالدة المصابة بالزهرى . فأحياناً نجد فى تاريخها المرضى — دون أى علاج

خاص — حوادث إجهاض ، تليها ولادة طفل عليه أعراض الزهرى قد يعيش أو يموت ثم يأتى دور تلد فيه أطفالا أصحاء ، أى أن شدة العدوى قد تتراخى وتتذبذب مع الزمان ، ولكن هذا لا يمنع أن تنتكس الأم فى أى لحظة فتلد أطفالا بهم علامات المرض بعدذرية سليمة صحيحة . وكثيراً ما تلد الأم المصابة بالزهرى توأمين أحدهما سليم معافى وبالثانى أعراض المرض واضحة جلية ، وأغرب من هذا أنه يندر أن ينتقل الزهرى الوراثى إلى الجيل الثالث وما بعده ، لأن العدوى به تضعف تدريجاً فى الأجيال المتعاقبة حتى تتضاءل أو تختفى فى الجيل الثالث . ومنذ عام ١٨٣٧ أثبت (كول) أن والدة الطفل المصاب بالزهرى الوراثى يمكنها إرضاع طفلها حتى ولو لم تظهر عليها أعراض المرض ؛ وليس هذا لمناعة عندها ، بل لأنها مصابة به وهى التى نقلته إليه ، أى أنها أس البلاء ورأس الداء ، وليس ما بطفلها إلا قطرة من بحرها العميم ، أو قل بئرها الذميم ، فهى مهما تخفت وراء ستار خلوها فى الظاهر من أعراض المرض فإن تحليل دمها دليل اتهام دامغ . وعلى العكس من هذا ، إذا ولدت الأم المصابة بالزهرى طفلا سليما فى ظاهره فلا خوف عليه إذا رضع من ثدى أمه لأن مجرد مرور الجرثومة فى جسمه وهو جنين كاف لأن يكسبه مناعة واقية أو يمكن العودة إلى قصة البحر وقطرته كما سبق قوله . والويل للمرضع الأجيرة إذا سلمناها طفلا مصاباً بالزهرى فإنه لا بد ناقل

المرض إليها ، وكذلك إذا أصيبت الأم بالمرض لأول مرة بعد الولادة ثم استمرت فى إرضاع طفلها فإنها لا بد ناقلة العدوى إليه وأى جرم أمام رب السمٰوات والأرض أفظع من هذا .

ويظهر التفاعل الإيجابى لتحليل دم الطفل بطريقة واسرمان ابتداء من الشهر الثالث بعد الولادة . وكثيراً ما يحدث أن يكون التفاعل سلبياً فى حالات الزهرى الوراثى فى الأسابيع الأولى بعد الولادة ، ثم يأخذ فى الظهور تدريجاً حتى يصل إلى قمته ، وبالعكس من هذا قد يكون التفاعل إيجابياً فى الأسابيع الأولى من حياة الطفل ثم يصبح سلبياً بعد ذلك فى خلال أيام أو أسابيع ، وهذا ما يسمونه التفاعل الإيجابى الكاذب ، وهو يتسبب عن مرور أجسام مضادة إلى الجنين من دم أمٍّ عولجت بقوة أثناء الحمل ، ولكن استمر دمها إيجابياً للواسرمان ، وعلى هذه الأجسام المضادة تتوقف نتيجة التفاعل الإيجابى ولذا يجب ألا يجرى تحليل دم الطفل للواسرمان إلا بعد الشهر الثالث من حياة الطفل . ويجب ألا يتوقف علاج الطفل على نتيجة تحليل دمه . ففى الحالات التى نعرف أن الأم لم تعالج فيها بشدة أثناء الحمل يجب علاج الطفل دون تردد حتى لو كانت نتيجة تحليل دمه سلبية . ولقد ثبت أنه إذا عولجت الأم علاجاً كاملا فى الوقت المناسب فإنها تلد طفلا سليما فى تسعين فى المائة من الحالات . أما إذا أهمل علاج الأم فإن الجنين يموت فى الأشهر الأخيرة من الحمل فى الحالات الشديدة

ولذا نشك دائماً فى وجود مرض الزهرى عند الأم التى ينتابها إجهاض متكرر أو ولادات مبتسرة . وإذا ولد الطفل حيا فإنه يبدو سليما فى معظم الحالات ولا تظهر عليه أعراض قبل أسبوعين أو ثلاثة ، فنشاهد إذ ذاك طفحاً جلديا وزكاماً يميل إلى الإزمان ، وضموراً وضعفاً شديدين وتضخماً فى الطحال والكبد وهبوطاً مستمراً ينتهى بالوفاة ما لم يسعف الطفل بالعلاج السريع . وإذا فحصنا الطفل فى هذه الحالة وجدناه بائساً يائساً سريع التهيج والتذمر مجعد الوجه مصفرّه ، تضايقه زكمة ملحة تجعل لتنفسه ضجة مميزة تظهر عادة خلال الأسبوع الأول وقد تتأخر إلى الشهر الثالث . وهنا يجب أن أذكر أن الطفل الوليد عرضة للزكام العادى كأى شخص آخر ، ولكن زكام الزهرى الوراثى يتميز عن غيره بشدته وإزمانه ووجود دم فى إفرازات الأنف ، وكثيرا ما يصحبه التهاب فى الحنجرة يجعل الصوت غليظاً أجشًّا . ويقتصر التهاب الأنف فى أول الأمر على الغشاء المخاطى ، ثم لا يلبث أن يمتد إلى غضاريف الأنف وعظامه فيحدث فيه تآكلا وتشوهات يبقى أثرها مدى العمر . ويشاهد فى كثير من الحالات حدوث نزف من السرة والأغشية المخاطية وتحت الجلد ، والتهاب فى أطراف العظام تجعل الطفل غير قادر على تحريك أطرافه ، وتدفعه إلى الصراخ عند محاولة تحريكها أو لمسها ، فإذا فحصت العظام بالأشعة

السينية وجـدت علامات مميزة تجعل تشـخيص الداء فوق مواطن الشك .

وكثيرا ما يتأخر ظهور أعراض الزهرى الوراثى لبضع سنوات قد تعدو عَـشْـراً ، وفى هذه الحالات قد تكون الأعراض المبكرة التى سبق وصفها غير موجودة بتاتا ، أو قد تـكون من القلة والبساطة بحيث تمر دون أن تلفت نظر الطبيب أو أهل المريض ؛ وللزهرى الوراثى المتأخر علامات مميزة أهمها تشوه الأسنان وخاصة القاطعين العلويين الأماميين ، والتهاب فى العظام قد تصحبه آلام مزعجة تشتد عادة أثناء الليل فتقلق نوم المريض سنوات عدة ما لم نبادره بالعلاج ، وقد يشمل الالتهاب المفاصل وخاصة الركبتين ، وقد يصحبه ألم شديد أو قد يتميز بانعدام الألم بتة . وإذا تعدى الزهرى على منطقة الحواس الخمس فإنه يصيب منها البصر فيحدث التهابا فى القرنية والشبكية وعصب السمع فتكون النتيجة صمماً يأتى فجأة ويستمر بقيّـة العمر . أما منطقة الأنف وسقف الحلق فإنها فريسة سهلة للجرثومة ترتع فيها كيفما شاءت فتنخر فى الغشاء المخاطى وعظام الأنف وغضاريفه محدثة تشوهات لا تسر الناظرين ، وتبقى على مر العمر شاهدا على جناية بعض الآباء ؛ والأدهى من هـذا إذا وصلت الإصابة إلى الجهاز العصبى فإنهـا تصيب منه الأعصاب والمخ والنخاع الشوكى وأغشيتها وتحدث شللا وجنونا ؛ ويعتبر الزهرى مسؤولا عن

خمسة فى المائة من حالات الجنون وضعف القوى العقلية فى الأطفال. وكثيرا ما يبدو الطفل سليما حتى يصل إلى سن البلوغ حين تبدو عليه أعراض غريبة ، فيبدأ فى فقد ذاكرته ويتلعثم فى حديثه وتضعف قدرته على الكتابة ويصبح المشى صعبا ثم مستحيلا ، وتضعف قواه العقلية حتى تصل إلى درجة الجنون أو البله ؛ وينحدر الطفل نحو الهاوية رغم العلاج الشديد .

يا لها من قصة طويلة بشعة تبرر قول الشاعر القديم (هذا جناه أبى) ! والأجدر بنا كآباء أن نزيل هذه الوصمة من جبيننا وجبين الدهر ، فنفيد من أحدث طرق الوقاية والعلاج ضد هذا الداء الوبيل . إذ المعلوم أنه كلما بدأ علاج الأم مبكرا أثناء الحمل أو علاج الطفل بعد الولادة كانت الفرصة لإنقاذه أكبر وأقرب إلى التمام والكمال ، فلا نتردد فى فحص دم الحامل والمبادرة بعلاجها وجنينها معها ثم وخزه هو نفسه بالإبر عند ما يدفعه المد نحو الشاطئ المظلم .

جاءت أمطار الصيف

(كتبتها ذات ليلة صيف)

جاءت أمطار الصيف فاحذروها ! ويا ليتها كانت قطرات الغيث تأتى بخيراتها ، ولكنها أمراض الصيف بكل متاعبها ومضايقاتها . وليته كان الغيث السهل الميسر ، ولكنه السيل الكاسح المدمّر . الكل عنده سواء . الأطفال والرجال والنساء يختار لزحفه طرقا ملتوية هى الأمعاء ، ويمعن فيها تنكيلا حتى يغلب الداء أو الدواء ، وهو يغير طريقة هجومه من حين إلى حين ، مستعينا بمختلف الجراثيم ، فهو إما إسهال حاد يستنزف من الطفل حيويته ، أو دوسنطاريا ملحة ترهق المريض من كثرة التبرز والتعنى ، أو حمى معوية تطول أو تقصر وتسبب للطفل عذابا كبيرا .

ولنبدأ بإسهال الصيف فهو عدو الطفل الأكبر ، إنه يقضى فى مصر على ثلث الأطفال الرضع الذين لم يبلغوا السنة الأولى من عمرهم . ويوجد منه نوعان : النوع البسيط الذى يمضى بسلام بعد بضعة أيام يشكو الطفل خلالها من زيادة فى عدد مرات التبرز مصحوبة بوعكة خفيفة وارتفاع يسير فى الحرارة مع نوبات من المغص والقىء تسبب له ألما وصراخا . ولكن حتى هذه الحالات

البسيطة قد تتطور إذا تراخى الوالدان فى العلاج فتنتكس حالة الطفل فجأة فتنهار مقاومته بسرعة ويقضى فى ساعات أو أيام . أما الحالات الشديدة فقد تبدو بسيطة فى بدايتها ثم تتطور فجأة ، أو قد تبدأ عاصفة كاسحة فتقضى على الطفل فى ساعات أو أيام قلائل . وكثيرا ما سمعنا عن أطفال كانوا يلهون ويلعبون فى الصباح وهم أتم ما يكونون صحة وسعادة فإذا بهم فى المساء على حافة القبر يعانون السكرات نتيجة إسهال فجائى حاد .

وأول ما يلاحظ فى مثل هـذه الحالات قئ مستعص يعاود الطفل كلما تناول أى سائل أو غذاء ، وتكثر عدد مرات التبرز ويتغير لونه ورائحته . ولكن حذار من الاعتماد كلية على شكل البراز . فقد يحدث فى الحالات الشديدة أن يتبرز الطفل مرتين أو ثلاثاً ، وقد لا تدل رائحة البراز على وجود عفونة أو تخمر فينحدر الطفل سريعاً نحو الهاوية قبل أن يشخص الداء على حقيقته . ولذا يجب ألاّ تتهاون فى العناية بهـذه الحالات وإلا صعبت مهمة الأم والطبيب معاً فى الأخذ بيد الطفل إلى بر السلامة . ويمكن إدراك تطور الحالة إلى الأسوء باشتداد حالة القئ بحيث يستعصى على الطفل أن يتناول أى سائل مهما كانت طبيعته ، وينقص وزنه بدرجة لا مثيل لها فى أى مرض آخر من أمراض الطفولة ، وتغور عيناه وتجف شفتاه فيفتح فمه ويدلى لسانه إلى الخارج باحثاً ومطالبا بجرعة ماء سرعان ما يتقايأها عقب تعاطيها ،

وينكمش جلده وتزيد سرعة تنفسه وترتفع درجة حرارته ، وتظهر على وجهه كل معانى الألم ، وقد تنتابه تشنجات تعقبها غيبوبة تنذر بخطر مبين . ولا بد من سرد بعض طرق الوقاية التى يفيد اتباعها فى تجنيب الطفل ويلات هو فى غنى عنها . وأول هـذه الطرق تشجيع الأم على إرضاع طفلها ، وخاصة إذا كان الجو حاراً حيث تلوث الألبان العادية بالجراثيم ؛ وإذا لم يكن هناك بد من اللجوء إلى لبن خارجى فتفضل ألبان العلب لخلوها من الجراثيم وسهولة هضمها . كما تجب العناية بغلى أدوات الرضاعة من زجاجات وحلمات . ولمكافحة الذباب أهمية خاصة ، فيجب وضع الغذاء والأدوات المستعملة فى تحضيره فى أماكن لا يصل إليها الذباب . ومن أهم طرق الوقاية تجنب فطام الطفل فى فصل الصيف مهما كان عمره ، وكذلك العناية بعلاج الإسهال مهما كان بسيطا ، فإن الحالات البسيطة قد تصبح شديدة إذا أهمل علاجها . ويجب علينا أن نقف منها من البداية كالمقدم على معركة ضد الموت بعينه ، لا يخدعنا لين ملمسها فهى خادعة قد تنقض على غريمها فى ساعة غفلة واستسلام . ويجب أن أحذر الأمهات مشدداً من أن معظم الأطفال الأصحاء تظهر أسنانهم دون أن يصيبهم مرض ما ، فكثيراً ما تعتمدن على أن ما بطفلهن من إسهال أو غيره ناتج عن بروز سن تصادف حدوثه قبيل أو أثناء إصابة الطفل بالمرض ، فيتراخين فى العلاج اعتمادا على هذه الفكرة الخاطئة ، ولا يفطن

إلى الحقيقة المرّة إلا عند دخول الطفل فى دور النزع حين لا ينفع الدواء فلتذكر الأم دائما أن التسنين لا يمكن أن يتسبب عنه إسهال حاد .

وفى علاج هـذه الحالات أود أن ألفت النظر إلى نقطتين هامتين : الأولى أن نمنع الطفل من تناول أى غذاء ، بل نقتصر على إعطائه سوائل بسيطة كمنقوع الينسون أو الكراوية أو ماء الأرز حتى يراه الطبيب . والثانية تحذير الأم من الإكثار من ثياب الطفل أثناء مرضه . فكثيرا ما لاحظت أن الأم تعمد إلى الإكثار من ثياب طفلها الداخلية والخارجية ظنا منها أن فى زيادة تدفئته فائدة تعود عليه . والواقع غير ذلك ، فإن الإسهال والحر والدفء ضدان لا يجتمعان . ويميل الرأى الحديث إلى تخفيف الثياب ما أمكن ووضع الطفل فى أرطب غرفة بالمنزل ، بل وأكثر من ذلك إلى تسليط مروحة كهربائية على لوح من الثلج فى غرفة المريض ، لأن ذوبان الثلج وتشبع جو الغرفة بالرطوبة يقلل من فقدان الماء من جسم الطفل عن طريق جلده أى عن طريق العرق والتبخر من سطح الجسم ، ويكفيه ما يفقده من ماء كثير فى برازه المتكرر . أما الدوسنطاريا فحكمها كالإسهال فى طرق الوقاية والعلاج ، ولكنها تختلف عنه فى الأعراض بظهور دم ومخاط وصديد فى البراز ، ويقاسى الطفل من آلام باطنية شديدة مصحوبة

يميل إلى الحزق والتعنى ، فيأرق نومه ويسوء يومه ويسام من العذاب ألوانا .

وقصة حميات التيفود والبارا تيفود طويلة ، ويكفى أن نقول هنا إن جراثيمها تظهر فى براز المريض وأحيانا فى بوله ، وإن تلوث الأطعمة بهـا من أهم عوامل انتشار المرض . والمعلوم أنها تنتقل بوساطة اللبن ومركباته والجيلاتى بأنواعها والخضروات النيئة كالتى تستعمل فى تحضير السلاطة مثل الخيار والجرجير والخس والطماطم ، وقد تأتى العدوى عن طريق حامل الجراثيم ، وهو الذى توجد الجرثومة بجسمه دون أن تظهر عليه أعراض المرض . وأشد حاملى الجراثيم خطراً هم الخباز والطاهى وبائع اللبن ، ويجب أن نشك فى وجود حامل الجرثومة بين أصحاب هذه المهن فى الأوبئة التى يصاب بها أفراد عديدون فى شقة واحدة أو عمارة واحدة أو شارع واحد . وحمى التيفود شديدة العدوى ، لذا يجب عزل المريض حتى يتم شفاؤه ، وحتى يثبت الفحص البكتريولوجى للبراز والبول ثلاث مرات متوالية بينها على الأقل يومان ، عدم وجود جرثومة المرض فى إفرازات الطفل . وفى أثناء المرض يجب تطهير البول والبراز ، فيضاف إلى محتويات القصرية حامض فينيك أو ليزول ، وتترك وهى مغطاة لمدة نصف ساعة قبل تفريغ محتوياتها فى المرحاض ، وإنى أحذر دائما من عادة تقديم المرطبات والقهوة للزائرين فى منزل به إصابة بالتيفود . ويا حبذا لو تناسينا غريزة

إكرام الضيف فى هذه الظروف فى سبيل السلامة الشخصية . أما الذباب ، وهو الحليف الأكبر لحمى التيفود ، فتجب مكافحته بشتى الوسائل كاستعمال السوائل المضادة للذباب ووضع شِبَاكٍ على النوافذ ، لأنه من أهم عوامل انتشار المرض .

فإذا أخذنا حذرنا من الذباب وإفرازات المريض أمكننا وقاية المخالطين من انتقال العدوى إليهم ، ولكن يجب أن ندعم مناعتهم بحقنهم بالطعم الواقى ، ويمكن حقنه للأطفال ابتداء من السنة الثالثة من عمرهم بمقادير مناسبة . ويا حبذا لو حُقن الأطفال به فى بداية الصيف من كل عام بأخذهم إلى أقرب مكتب صحة حيث يطعّمون مجانا ضد مرض من أخطر أمراض الطفولة .

وفى الختام أحذركم من أشياء أربعة : الذباب ، والخضروات النيئة ، وأصابع المريض وإفرازاته ، واعتبار التسنين كسبب لبعض أمراض الصيف .

الجـــير

الكالسيوم كما تعرفونه جميعا

أو — أى والله — الكلسون أو الكالسيون كما يسميه العامة . والويل للدواء الذى تتداوله ألسنة العامة فى الشرق . فإن حروف الهجاء التى يتكون منها تتهلهل حتى لقد يبلى منها البعض ويختفى أو يتحول بقدرة الخلاق الذى أنطقنا بالضاد إلى زملاء فى الأبجدية لا تمت للأولى بصلة . هذه المقدرة العجيبة هى التى أرغمت شركة « أسبرو » على أن تحول اسم مستحضرها فى نطاق العامة إلى « سبيرو » لأن الأغلبية نطقت به هكذا وحورته إلى اسم مقرب لها تسمعه دائماً فى مقاهى ضيوفنا اليونانيين ، فتمسكت به ولم ترض عنه بديلا ، حتى نزلت الشركة العالمية على إرادتها خاضعة صاغرة ، فيالها من معجزة تمليها الفطرة القادرة على كل شىء !

وأول ما توحى به كلمة الجير هو التعمير والبناء . والواقع أن عليه يتوقف بناء العمد التى يتوكأ عليها الجسم فى حله وترحاله ، وأعنى الهيكل العظمى الذى يشمل عظام الأطراف والعمود الفقرى والأضلاع والأسنان . ويتوقف نمو الجسم على كمال هـذا الهيكل وسلامته . ومتى توفر عنصر الجير فى الغذاء نمت العظام نمواً كاملا

سليما ونما الشخص معها فى هيبة غير مشوهة تجعل منه فتنة الناظرين . وليس مفعول الجير مقصوراً على نمو العظام ، ولكن له علاقات هامة بالأعصاب والعضلات ، فهو يسكن من حدتها ، وبتجلط الدم فهو يساعد على إيقاف النزف فى الأمراض النزفية ، وهو يحد من ارتشاح السوائل من الأوعية الدموية إلى الأنسجة ، فكثر استعماله فى الأمراض التى يصحبها ارتشاح عام أو موضعى ، وقد استعمل الجير فى السنوات الأخيرة كعلاج لكل داء . وانتابت الجمهور حمى «الكالسيوم» وأصبح صاحب الحاجة يجوب الصيدليات قلقاً حائراً يبحث عن ضالته فى وقت عزت فيه وشحت بسبب الأحداث العالمية ، وما أعز الشىء إذا شح وندر ، وما أرخصه إذا وصل إلى اليد فى سهولة ويسر ! لقد كنت أزور أخيراً أحد معارفى فى مكان متواضع من دواوين الحكومة ، فشاهدت على مكتبه ثلاث زجاجات بها مسحوق يميل إلى الحمرة فسألته . ما هذا ؟ فأجاب فى برود عجيب : « بنسلين » خذها إذا أردت . إن الحصول عليه الآن سهل للغاية . فشهقت وأنا أقول لنفسى : « عجبى للحجر السحرى يصل إلى هذا الركن المظلم بعد أن كانت تشتهيه القصور ، ياخوف على البنسلين عند ما تعتاد رؤيته العين وتمل اسمه الأذن ! » .

ولنطرق الآن الموضوع من بابه الأمامى ، فنقول : إن حاجة الفرد العادى من أملاح الجير تبلغ ستة أعشار الجرام فى اليوم

الواحد ، وهو المقدار الذى يحويه نصف لتر من اللبن . وتزيد الحاجة إليه فى الأطفال عنها فى الكبار ، إذ تبلغ جراماً أو اثنين فى اليوم ، لأنهم ينمون بسرعة تتطلب مقداراً أكبر من الجير اللازم لعظامهم التى تزيد مع مر الأيام طولا وسمكا ، وكذلك فى حالات الحمل والإرضاع وفى سن المراهقة . ولا شك أن خير مصدر لأملاح الجير هو المصدر الطبيعى أى اللبن ومركباته ، لأنها — علاوة على الجير — تحوى عناصر أخرى مغذية — أما الخضراوات فإنها على الرغم مما تتمتع به من شهرة فى هذا الصدد لا يمكن الاعتماد عليها .

والسر فى حاجة الحامل إلى كمية أكبر من أملاح الجير أن الجنين يختزن ما مقداره ثلث جرام يومياً يغتصبها دون شك من أمه التى يجب أن نعوضها عما تفقده . أما المرضع فإنها تعطى طفلها حوالى اللتر من اللبن يومياً . وهذا يحوى نصف جرام من الجير تهبه عن طيب خاطر لطفلها النامى . لذا يجب تعويض هاتين الشهيدتين عما تفقدانه وذلك برفع جرايتهما اليومية إلى جرام ونصف من الجير لنمكنهما من سد حاجاتهما وإرواء غليل الضيف الثقيل الحبيب .

ولا بد من وجود الفيتامين د لإتمام عملية امتصاص أملاح الجير من الجهاز الهضمى وترسيبها فى العظام . ويكفى للشخص البالغ أن يتعرض لأشعة الشمس فيتحول الأرجوسترول الموجود

فى المادة الدهنية تحت جلده إلى فيتامين د فعال ، هذا علاوة على ما يحويه طعامه من هذا الفيتامين . أما الطفل — وخاصة إذا كان يرضع لبناً حيوانياً — فلا بد من إعطائه أحد مستحضرات الفيتامين د مثل زيت السمك وتعريضه للأشعة فوق البنفسجية سواء من مصادرها الطبيعية أو الصناعية . والواقع أن نقطة الضعف الأساسية فى لين العظام هى عدم قدرة الطفل على ترسيب أملاح الجير فى عظامه نتيجة نقص هذا الفيتامين ، فقد تكون كمية الجير فى الطعام كافية ونسبته فى الدم طبيعية ومع ذلك لا يرسب فى العظام لكى يكسبها الصلابة المرجوة فتكون النتيجة عظاماً لينة تلتوى تحت ثقل الجسم فيخرج الطفل إلى خضم الحياة كسيحاً مشوها يغمره شعور بالقصور والنقص .

ومما يثبت علاقة أملاح الجير بحساسية الأعصاب والعضلات أن بعض حالات لين العظام مصحوبة بتشنجات وتقلصات عضلية قد تصيب الأطراف والعضلات الداخلية كعضلات الأمعاء والشعب فتحدث فى الأولى آلام بطنية شديدة وفى الثانية حالة شبيهة بالربو ، وكلها أعراض لا تختفى إلا إذا حقن الطفل بأحد مستحضرات الجير بكمية وافية ، وإذا فحص الدم فى هذه الحالات وجد أن مستوى الجير فيه أقل من الطبيعى بكثير . فإذا وفينا العلاج حقه ارتفعت النسبة تدريجياً واختفت الأعراض العصبية تبعاً لذلك .

وهناك معدن ثقيل وهو الرصاص يميل إلى أن يرسب فى

العظام مع الجير ، وقد استغلت هـذه الظاهرة لمصلحة المصابين بتسمم الرصاص — وأكثرهم من الذين يشتغلون فى معامله — والذى من أهم ظواهره فقر الدم وألم البطن وشلل الأعصاب وتصلب الشرايين والتهاب الكليتين . فأول خطوة فى علاج هذه الحالات هى إعطاء المريض كميات كبيرة من الجير فى طعامه وحقنه فى الوريد بمحلول جلوكونات الجير ، فمتى وصل إلى الدم وتغلغل فى خلايا الجسم اجتذب إليه الرصاص وصحبه معه إلى مستودعات العظام وثبتته هناك مدة من الوقت كافية للتلطيف من حدة الأعراض . ومتى تم ذلك سمح للرصاص بالانصراف تدريجياً ، فتفرز الكميات الصغيرة المحررة أولا فأولاً دون أن يتأثر بها الجسم.

* * *

ونسبوا إليه أهمية كبرى فى علاج التدرن الرئوى ، زاعمين أن إعطاء كميات كافية منه ومن الفيتامين د تساعد على ترسيبه فى منطقة الإصابة الرئوية فينحصر المرض فى نطاق ضيق وكأن حصاراً ضرب حوله يحد من انتشاره فتندفع جحافل الجسم إلى العدو المنهزم وتقضى عليه القضاء الأخير ؛ وكل هذا كلام يبدو جميلا ومعقولا . ولكن الحقيقة أن الأبحاث التى أجريت حتى الآن لم تثبت أن لغمر الجسم بأملاح الجير فائدة خاصة فى التئام الإصابة الرئوية ، وبمقارنة حالات عولجت به وبدونه — مع اتفاقها فى الوسائل الأخرى كالغذاء والهواء الطلق وجد أن سرعة التئام

الإصابة واحدة فى الحالتين . ولكن كل هذا لا يمنع من إعطائه للمريض الأعزل الذى يستنجد بكل وسيلة ليصل إلى بر الشفاء . ومما لا شك فيه أن الجير يحدث أثرا معنويا كبيرا فضلا عن كونه ينشط الجسم وينبه فيه قوة المقاومة .

والجير من الأدوية التى تحمى الكبد من عوادى الزمان . فهو يقف كالدرع الواقية حائلا دون وصول السموم إليها ، ولذا كثيرا ما نستعمله فى حالات التهاب الكبد واحتباس الصفراء لنوقف سير المرض ونساعد على سرعة الشفاء . وقد سبق القول أن الجير يحد من ارتشاح السوائل إلى خارج الأوعية الدموية ، ولذا كثر استعماله فى أمراض الحساسية التى تصحبها هذه الظاهرة مثل الانجرية (الأرتكاريا) والربو حيث انسكاب السوائل فى الأنسجة يفسر الحالة الجلدية فى الأولى ، وبالإضافة إلى تقلص الشعب يفسر ضيق التنفس فى الثانية . فإذا أعطينا الجير فى نوبة ربو حادة مثلا فإنه يساعد على إيقافها بالحد من الارتشاح وبتسكين تهيج عضلات الشعب فتنفرج بعد ضيق ويعود التنفس سهلا كما كان .

ومن المسلم به أن أملاح الجير لها علاقة هامة بتجلط الدم ولذا يشير الأطباء بتناولها لبضعة أيام قبل إجراء أى عملية جراحية ، لأن هذا يساعد على الإقلال من النزف الذى قد يعقب العملية . وقد ثبت أخيراً أن الجير يساعد الكليتين على إفراز البول فنصح

الأطباء بإعطائه فى حالات التهاب الكليتين الحاد أو المزمن ، وخاصة إذا كانت مصحوبة بأعراض عصبية مثل التقلصات أو التشنجات . واستعمل الجير فى السنين الأخيرة — مع أشياء أخرى طبعاً — فى علاج هبوط القلب على زعم أنه يقوى عضلات القلب . وكثيراً ما نجد كربونات الجير ضمن مساحيق المعدة والأمعاء ، لأنه مضاد للحموضة ، وفى حالة الإسهال يمكن الاستفادة من خواصه المسكنة الموضعية .

هذه قصة الجير الذى هو همزة الوصل بين الطفل الرضيع وناطحة السحاب .

حاجتنا الى ثقافة جنسية

آفة الشرق خجل فى رياء . وعلته ، تعلق بالقشور دون جوهر الأشياء . الغربى يقابل الداء صريحا ويقاتله صريحا . والشرقى يوارى ويدارى حتى يسقط فى الميدان صريعاً أو جريحا . مثلنا الحى فلاح القرية الذى يقتل ابنته إذا اشتم فى الجو شكا فى سلوكها ، ثم لا يستنكف بعد هـذا أن يزف الى أهل القرية بشرى منديلها بدمها الأحمر القانى فى يوم زفافها . الديانات سمحة فياضة . والمثل السائر يقول لا حياء فى الدين ، ولا فى العلم ، والدين الإسلامى على الأخص يحوى تفصيلات شاملة عن كل ما يمت للعلاقة الجنسية والزوجية بصلة . ففى آياته البينات نجد المبدع والمطرب عن الجنسيات كالزواج والحيض والنفاس والجنابة وكلها مفصلة تفصيلا رائعا فى أسلوب سماوى يوحى بالخشوع والخضوع دون أن ينبه فى النفس الغرائز البهيمية التى تخشاها طائفة المترددين من علمـاء التربية . لقد حث النبى محمد صلى الله عليه وسلم على تعليم الدين للمرأة والبنت والرجل على حد سواء ، ولم يقل أبدا استبعدوا من تعاليمه ما قد تخجل الفتاة من ذكره . فما أحرانا وقد مضت على وجود هذه العقلية الجبارة الفذة حوالى الأربعة عشر قرنا أن نتبع بإخلاص وروية ما ورد فى تشريعنا السماوى الذى لو نفذنا تعاليمه

بدقة منذ نزل على الرسول لكان للعالم العربى شأن أى شأن ، ولكننا للأسف تمسكنا منه بالقشور دون اللباب .

* * *

كنت منذ أكثر من عشر سنوات أتصفح عدداً من مجلة الهلال فرأيت صورة لمدرسة فى بلدة إنجليزية عمد رؤساؤها أن يجردوا الطلبة — فتيانا وفتيات — من ملابسهم ، فيتلقوا علومهم فى الهواء الطلق عرايا لا يستر عورتهم حتى ورق التين ، وقيل وقتئذ إن الحكمة فى هذا هو تقوية الجسم وترويض النفس على مقاومة الغرائز البهيمية التى تثور وتفور كلما وقعت العين على ما خفى من الجسم البشرى . وكنت أتتبع فى ذاك الوقت تطور التثقيف الجنسى فى عالم الأدب الإنجليزى وكيف عمد الكتاب والكاتبات إلى الصراحة فى أرشاد الشعب إلى أسرار الحياة الجنسية وعلاقتها بالسعادة الزوجية ، وتبعتهم الحكومة فى هذا الميدان فافتتحت عيادات خاصة فى مختلف أنحاء البلاد يلجأ إليها الأزواج والزوجات مسترشدين بالأخصائيين فى كل ما يعرض لحياتهم الزوجية من مشكلات وصعاب . كنت كلما قرأت هذه التفاصيل أعجبت وعجبت ، أعجبت بهم كشعب يواجه الحقائق بلا خجل ولا حياء . وعجبت هل جرفتهم هذه الأباحية فى تيار نسوا فى أمواجه المتلاطمة تعاليم الأخلاق والدين والمبدأ . ثم شاءت الظروف أن أمضى فى انجلترا فترة من الزمن فراعنى وأعجبنى

احترامهم للكنيسة والدين . قل أن يقصر انجليزى فى الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، هم أكثر منا تدينا وتمسكا بتعاليم الدين . ولقد تمسكوا بتقاليده وأصوله حتى فى حربهم الأخيرة مع عدو غاشم لم يرع فى حربه مبدأ ولا دينا . . وإنما ضربت المثل بالشعب الإنجليزى لأنه أكثر الشعوب هدوءا ومحافظة على التقاليد ، ولا يسمح لفكرة جديدة أن تنتعش وتزدهر إلا بعد أن يدرسها دراسة عميقة ويدرس احتمالاتها القريبة والبعيدة . لقد بدأوا سياستهم الجنسية الجديدة منذ حوالى الربع قرن من الزمان ، فلا غضاضة أن نبدأها نحن منذ أن ثبت لهذا الشعب المحافظ أن لا خطر منها على شعب يتمسك بأصول الدين وتعاليم الله .

* * *

والآن وقد كدنا نتفق على المبدأ ، فلا بد أن ينشب بعض الخلاف على من يبدأ . سيقول الوالد اعفونى من هذه المهمة العسيرة فالمدرس أكفأ من يقوم بها . وستصيح الأم قائلة يا ويلتاه كيف أصارح ابنتى بسر الحياة وهى بعد يافعة فتتفتح أمام عينيها مغاليق الغريزة الجنسية فتندفع فى تيارها قبل الأوان . وسيعجب المدرس كيف تلقى على كتفيه مهمة دقيقة كهذه كان أجدر بالوالدين أن يضطلعا بها . يا للخجل ! كيف أتحدث عن (الجنس) للفتى والفتاة دون أن تصطبغ خداى بحمرة الحياء ، ودون أن يتهامس التلاميذ ويتغامزوا ويبتسموا فى خبث ودهاء .

والواقع أن سر التردد فى القيام بهذه المهمة يرجع إلى ثلاثة عوامل : أولها الخجل ، وثانيها الجهل بطريقة تقريبها إلى الأذهان ، وثالثها الاعتقاد السائد بأنه يحسن تأجيل هذا التثقيف الجنسى إلى أبعد حد مستطاع لأن الجهل بتفاصيله دليل على البراءة والإلمام بها مجلبة لسوء الخلق . وأنى أتخيل الطفل — نتيجة ترددنا — واقفا عند مفترق طريقين لا ثالث لهما ، يمثل أحدهما العلم الصحيح النظيف الذى يلقنه أياه العالمون ببواطن الأمور كالوالد أو المدرس ، ويمثل الآخر المعلومات المشوهة الناقصة التى يلتقطها من أفواه أصدقائه بالمدرسة وخدم المنزل بأسلوب أبعد ما يكون عن التهذيب ، فتتولد فى ذهنه فكرة مشوهة عن روحانية الحب والعلاقة الجنسية .

ويجب أن يكون التثقيف الجنسى تدريجيا بحيث يختلف مع أدوار الحياة المختلفة من الطفولة إلى الشباب . وفى الغالب يكون حب الاستطلاع هو الذى يدفع بالأنسان إلى التساؤل عن بعض ما يمت إلى الغريزة الجنسية بصلة ويحسن أن نستبق الحوادث بأن نمهد للشخص سبيل المعرفة قبل أن يواجه الوقائع . فالولد مثلا يجب أن يعرف ما قد يحدث له من تطورات فى سن معينة كتغير الصوت والاحتلام وغيرهما حتى إذا ما جربها بنفسه لا تتولد فيه حيرة مؤقتة وروح من القلق تدفعانه إلى التساؤل عن سر ما حدث من أشخاص قد يعطونه أخطأ المعلومات . وكذلك الفتاة

فإنها يجب أن تعلم تطورات البلوغ الجسمية والنفسية وأن مهمتها فى الحياة أن تكون أما تحافظ على الجيل المقبل ويجب أن تحدثها الأم أو المعلمة فى صراحة تامة عن أسرار جسمها وخاصة أعضائها التناسلية . فيجب أن تعرف مثلا عند اقترابها من دور البلوغ كيف تحافظ على نفسها من عبث العابثين وأن فى المكان المقدس من جسمها سر نضارتها وطهارتها وشرفها وأن المحافظة عليه وعلى الغشاء الذى يحميه هو الذى يرفع قدرها ويجعل الجميع ينظرون إليها نظرة كلها إكبار وإجلال . يجب أن تفهم أن مهمتها فى سبيل حفظ النسل هو أفراز البويضة وأن الجنين يتكون بتقابلها مع أفراز آخر من جانب الرجل . يجب أن تعرف أن أفراز الرجل مكون من حيوانات صغيرة لها قدرة عجيبة على الحركة وأنها إذا استقرت على الشفرتين الخارجيتين تمكنت ، بما حباها الله من قدرة على الحركة ، من التسلل إلى داخل الرحم فيؤدى تقابلها بالبويضة إلى الفضيحة الكبرى وهو الحمل غير الشرعى . إذا علمت الفتاة هذا تجنبت ممارسة أى عبث سطحى خارجى قد يغريها فى سبيله شاب طائش . وكم من فتيات لم يمس غشاء بكارتهن بسوء وجدن أنفسهن فى مأزق حرج ينتقلن من طبيب إلى طبيب متوسلات راجيات للتخلص من حمل نتج عن عبث سطحى طارئ .

* * *

أما الطفل الصغير فيمكن تقريب الأمور الى ذهنه بتطبيقها

على حيوان أليف بالمنزل أو بميلاد طفل جديد . وقد يدفعه حب الاستطلاع إلى أن يتساءل « كيف ولدت يا أماه ؟ » وهنا يجب ألا تحاول الأم تحويل مجرى الحديث أو المراوغة لكى تتجنب الإجابة على سؤال محرج ، أو ضرب طفلها محذرة أياه من العودة إلى مفاتحتها فى هذا الموضوع ، بل يجب أن تأخذه بالحسنى وتتدرج به فى سبيل التفاهم بخيال قريب إلى ذهنه وبعيد عن اللفظ النابى . يمكنها أن تقول له مثلا « أن الله أمرنى وأباك أن نصنعك كما ألهم غيرنا باختراع الراديو والتليفون ، فأنت إلهام من الله وسر وجودك يتعلق بثلاثة : الله ووالدك وأنا ، فإذا أردت أن تعلم شيئاً عن سر مولدك فإياك أن تتحدث إلى أحد غيرنا نحن الثلاثة أياك أن تسأل الخادمة مثلا فأنها تجهل هذا السر المقدس وأياك أن تفاجئ ضيفا بهذا السؤال فأنه لم يحضر الجلسة السرية التى عقدها الثلاثة المسئولون عن حياتك » أن الطفل إذا لم يجد صدرا رحبا من والدته لجأ إلى خادمة المنزل يسألها نفس السؤال فتجيبه بلهجة بعيدة عن التهذيب عن هذا السر المقدس وتعطيه فكرة مشوهة عن قدسية العلاقة بين والديه .

ولقد أجمعت الآراء على أن انتشار التشرد فى مصر راجع إلى كثرة النسل بين طبقة الفقراء ومتوسطى الحال . فلماذا لا نعلم عامة الشعب وسائل بسيطة لتحديد النسل يمكن تلقينها إياهم فى مراكز رعاية الطفل وبذلك يمكن أنقاذ الطفولة المشردة بطريقة

سهلة عملية هى خير وأجدى من أنصاف الحلول التى تلجأ إليها الهيئات الحكومية وغير الحكومية كجمع الأطفال من أرصفة الشوارع وإيداعهم فى ملاجئ سرعان ما يملونها أو يهربون منها . وكذلك يدفع السيل الجارف من الأطفال الهيئات المسئولة إلى بعض التغاضى لأن المجال لا يتسع لإيواء هذا العدد الذى لا نهاية له . وبذا تترك فى مواخير المجتمع خميرة تكفى دائما لبدء الشر من جديد .

إن الصراحة فى الجنس هى التى تنقصنا لتنضج نفوسنا وتتهذب . وفى التثقيف الجنسى وقاية من كثير من شرور الحياة . ولم تندم قط أمة أباحت الصراحة الجنسية لعلمائها وكتابها يتحدثون بها إلى أفراد الشعب . والقرآن الكريم يتحدث عن جميع مشاكل الجنس والزواج فى صراحة وتعمق بليغين فلماذا نخدع أنفسنا ونحرم ما أحله الله فى كتابه الكريم .

تناسليات

كنت أقرأ بحثاً طبياً ممتعا فى المجلة الطبية البريطانية عن علاقة أنسجة المرأة بإفرازات الرجل وهل لتلك النطفة الخالدة تأثير على المرأة أكثر من التلقيح والتناسل ! والمقال لرئيس تحرير المجلة التى لم أقل عنها فى بدء مقالى إنهـا كبرى صحف الطب الإنجليزية . ويختار رئيس تحريرها عادة من بين كبار الأطباء ، وتلمس من كتاباته تعمقاً فى أدب اللغة ، فهو أديب وطبيب . والحصول على هذا المنصب شرف كبير ، ومع ذلك إذا دققت فى البحث عن اسم الذى تُوِّج به فإنك لا تجده ، وهذا مثل من نكران النفس فى سبيل العلم ، والبعد عن الإعلان الرخيص فى سبيل كرامة المهنة . وعند ما تقرأ هـذا المقال اعلم أننى اقتبست كلام طبيب عظيم لا يشرفنى بمعرفة اسمه إلا إذا حاولت الـكتابة إلى المجلة أسألها عنه وهو ما لم أفـكر فيه خلال هذه السنين الطوال ، وكل ما أعرفه أنه يجب أن يكون شخصاً درّبته التجارب وصقله الإطلاع ، فإذا قال أو نقد فقوله الفصل ، وإذا كتب اختار اللفظ الذى لـكل حرف منه نغم ومعنى خبىء . لو قلدناكم أيها القديسون الأبرار لـكان لنا شأن أى شأن . فعلّة الشرق خداع ورياء ، وآفته تعلق بالقشور دون جوهر الأشياء !

يبدأ هذا العظيم المجهول بذكر بعض النظريات الطريفة عن العلاقة بين حيوان الذكر وجسم الأنثى ، فيقول : إن من أولاها تلك التى تقول إن إفراز المنى عند ما يتحلل فى مسالك المرأة ينتج مادة تؤثر على عادات المرأة وأخلاقها لدرجة تجعلها تتطبع بطباع زوجها حتى تصبح على مرّ الأيام نصفاً متمماً له بحق . ولكن هذا الرأى بعيد عن الحقيقة رغم ما يبدو عليه من طرافة سطحية . والواقع أن طول المعاشرة وقوة الشخصية هما اللذان يرجحان إحدى الكفتين على الأخرى تحت السقف الواحد . ولكن ما يحير العلماء فى السنين الأخيرة تلك النظرية التى تقول إن السائل المنوى يحوى عناصر كيميائية ذات خواص منبهة ومغذية تمتصها جدران المهبل ، ومنها تتشعب خلال جسم المرأة حتى أناملها الرقيقة ، فتبعث فيها انتعاشاً ورفاهية نفسية . ويبالغ العلامة (فان دى فلد) فيقول : إن التى تتمتع لدرجة الشبق يحس برائحة المنى فى عبيرها وزفيرها . فكأنها تسلمت رسالة الرجل الخالدة حتى كريات دمها الحمراء .

ولقد أجرى (أرميتاج) فى عام ١٩٤٣ تجارب على الأرانب والفئران غير البالغة ، فوجد أن حقن السائل المنوى الآدمى فى مسالكها التناسلية ، يؤدى إلى اكتمال وتضج فى الرحم والمبيض ، واستنتج من هذا أن بالسائل المنوى مواد تمت إلى الهرمونات بصلة ، ويتوقف عليها نظام العمل فى الرحم والمبيض الآدميين .

وحاول أن يفسر بهذه النظرية الحالات الكثيرة التى نشاهدها فى حياتنا اليومية والتى تصاب فيها السيدة بالعقم أو ضعف الإخصاب والإنتاج بعد استعمال طرق منع الحمل التى يحال فيها دون وصول المنى إلى جدران المهبل كطريقة الانسحاب أو الكبود الإنجليزى.

ولكن ما هلّ عام ١٩٤٥ حتى قام سادة آخرون يتزعمهم الدكتور (باسيك) وأجروا تجارب واسعة النطاق على الأرانب والفئران كما فعل (أر ميتاج) من قبل ، وأثبتوا بصفة قاطعة أن حقن السائل المنوى فى المهبل لا يؤدى إلى أى تغيير فى الرحم أو المبيض أو المهبل ، واستنتجوا من ذلك أن هذا السائل لا يحوى أى إفراز داخلى نافع (هورمون) كالأندروسترون أو البيراندرين أو الأوسترين فهذه كلها إفرازات داخلية تتسرب من الخصيتين أو المبيض إلى الدورة الدموية مباشرة . وحتى إذا قيل إن المرأة تحتاج إلى الأندروسترون (وهو الإفراز الداخلى المميز للرجل والمعروف أحد مستحضراته باسم البيراندرين) فإن جسمها يحوى منه الكثير . بدليل أن بول المرأة يحوى من الأندروسترون بقدر ما يحويه بول الرجل ! .

فإذا دعم هذا الاكتشاف بأبحاث أخرى مستقبلة فقد يثبت لنا بصفة حاسمة أن ليس للقول بضرورة اختيار طريقة لمنع الحمل لا تحول دون ملامسة المنى لجدران المهبل أساس علمى ، ولو أن استعمال أى مانع للحمل لمدة طويلة قد يؤدى إلى خمول مؤقت فى

فى الأعضاء التناسلية للمرأة ، حتى لقد يمضى شهران أو ثلاثة قبل أن يُعد البيت من جديد وتزال من على جدرانه خيوط العنكبوت ليكون صالحاً لاستقبال الضيف الحبيب القديم بعد طول الغياب .

* * *

انتهى كلام الزميل العظيم ، وجاء دورى كنافل أمين لأسرد ما خطر لى وأنا أقرأ هذا المقال . مما لا شك فيه أن عملية التلقيح لا تتلخص فى تلاقى حيوان منوى ببويضة حائرة ، بل يسبقها ويصحبها ويعقبها فترات كلها حب وحنان واسترخاء يتمنى كلا الطرفين لو دامت دون مقاطعة حتى يطغى ملاك نوم ملىء بأسعد الأحلام . فمنع الحمل بطريق الانسحاب مثلا من أقسى ما يكون على الطرفين ، إذ المفروض فيها أن ينقطع الجماع فى فترة دقيقة يكون الزوجان خلالها فى أعلى درجات التهور الجسمى ، فكأنهما وقفا فى منتصف الطريق دون أن يبلغا قة النشوة المنشودة ، أو كما قالت سيدة لطبيبها عن شعورها فى تلك اللحظة : « إننى أشعر كأنى حاولت العطس من أنفى فلم أفلح ! » وإن تكرار اتباع هذه الطريقة لا بد أن يؤدى إلى توتر عصبى ونفسىّ ، رغم ما قد يبدو على الطرفين من مظاهر الصحة والسعادة ، فأعصابهما كالوتر المشدود الذى قد يرسل أحسن النغم وأجمله ، ولكنه قد ينقطع فجأة دون سابق إنذار أو لأقل طارئ . فالزوج قد ينهار أمام أول

صدمة قد تكون من التفاهة بحيث لا تؤثر فى الشخص السليم . والزوجة باسمة رغم تبرمها ، ضاحكة رغم ضيق صدرها ، ولكن حقيقة حالتها تنكشف عن أقل احتكاك وخاصة بالمسكين زوجها !

وما قيل عن الانسحاب يسرى تقريباً على التحصّن بالكبود عند مباشرة عملية الخلود الأكبر . أين الجدار الرطيب الغنى بدفئه وشرايينه التى تتطلع إلى ما يجرى فى محبة وحنان ؟ بل أين الحياة والتدفق يبعثهما سائل نشوان فى رسالة همس عنوانها فى أذنين والهتين مُدَنّفتين ؟ لماذا نشتت ما أراد الله جمعه ؟ هكذا بدأت الطبيعة . وإذا تطور العالم من الهمجية إلى اللاسلكى والذرية فإن جسم الإنسان طموح جامح لا يتنازل عن حق وهبه له الله . فلن ينتشى الرجل أو ترتفع المرأة بشعورها إلى السماء السابعة إلا إذا أخذت الطبيعة مجراها .

ومع الأسف الشديد لا يتأتى هذا الاحتكاك الطبيعى إلا باستعمال اللبوسات والأقراص المهبلية . أقول مع الأسف لأن مفعولها غير مضمون ، وخاصة فى الحالات التى يكون بعنق الرحم تمزقات تسمح بدخول بعض المنى إلى الرحم نفسه ، حيث يصبح بعيداً عن مفعول الدواء . بل يحدث أحياناً أثناء الرعشة العصبية عند السيدة أن ينفتح عنق الرحم فجأة فيُمْتص المنى إلى داخله مباشرة حيث يصبح بمأمن من الخطر ، وقد تنشأ عن استعمال هذه الأقراص التهابات رحمية ومهبلية وقرحات فى عنق الرحم قد

تحول دون الحمل فيما بعد وقد تؤدى إلى عقم مستعص .

أما طريقة منع الحمل بوساطة الغسيل المهبلى عقب الجماع فغير وافية بالغرض تماماً . إذ المعلوم أن للحيوانات المنوية قدرة على الحركة بسرعة ثلاثة إلى أربعة ملليمترات فى الدقيقة الواحدة ، فإذا لم يعمل الغسيل خلال دقيقة أو دقيقتين أعطيناها الفرصة لتصل إلى تجويف الرحم حيث تصبح بعيدة عن متناولنا . ولا بد أن هذه الطريقة تسبب مضايقة هائلة للسيدة مرهفة الحس لأن مجرد تفكيرها فى كونها مضطرة لأن تقفز من فراشها لعمل الغسيل خلال دقائق قلائل يفسد قدسية هذه الفترة السعيدة وروحانيتها .

دعنى أحدثك يا قارئى العزيز عن هـذا الحيوان الحائر ذى الرأس المدبب والذيل اللولبى . إن هذه القذيفة الهائلة التى تجمع بين قلق الجنس البشرى واستفزازه واستمراره فى آن واحد تحوى خمسمائة مليون جرثومة منوية فى السنتيمتر المكعب ، أى أن القذيفة الواحدة إذا وزعت بعدالة أو دون عدالة لكفت لتلقيح جميع إناث العالم ، لأن الأنثى الواحدة لا يلزمها أكثر من حيوان واحد من مئات الملايين هذه لتبدأ آدميا كامل التكوين ، سبحان من أبدع تصويره . وهل لى بهذه المناسبة أن أحدثك عن بضع القطرات من السائل اللزج التى تسبق القذفة الكبرى بدقائق أو ثوان . لقد ثبت قطعاً أنها تحوى فى معظم الحالات جراثيم منوية تكفى لإتمام عملية التلقيح ، وهذا هو السر فى فشل طريقة

الانسحاب كوسيلة لمنع الحمل عند بعض الناس . لأن الخطأ السائد الشائع هو أن هذا الإفراز يأتى من غدة البروستاتا ليمهد الطريق للإفراز المنوى أثناء رحلته الأخيرة نحو الهدف الأكبر . وهذا الإيحاء الخاطىء يعطى الفرصة لجراثيم عدة أن تنساب إلى المهبل فى غفلة من الطرفين .

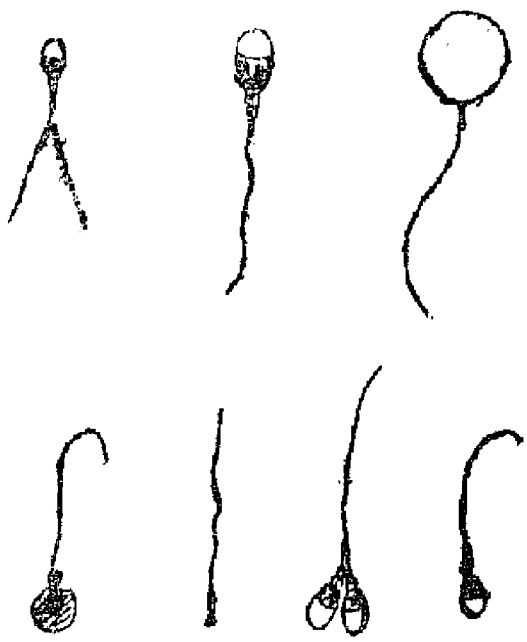

الحيوان المنوى كما يظهر تحت المجهر

إذا نظرنا إلى السائل المنوى تحت المجهر وجدنا أنه يتكون من حيوانات لها رأس وذنب . وإذا أمعنت فى الصورة المرفقة بهذا لرأيت عجباً . ما هذا الرأس الكبير الذى نشاهده على يمين الشكل الأول . لا بد أنه لزعيم القافلة أو قل قائدها . أبدا والله إنه مثل ترهل الجميز ، طبل أجوف ، لا قدرة له على التلقيح رغم ضخامة منظره ، ثم انظر إلى ذى الذيلين وذى الرأسين اللذين يوحيان

بازدواج القوى فى سبيل اقتناص الفريسة . وهذان أيضاً قد فلق منهما الرأس وفت منهما العضد لشيخوخة لحقتهما قبل الأوان فلا رجاء منهما . ثم انظر إلى تلك التى أعلنت عن حقيقة حالها فطاح منها الرأس وبقى الذنب لا يكاد يلوى على شىء . كل هذه الأنواع عقيمة لا تلقح البويضة وهى توجد بقلة — أى بنسبة الخُمْس — فى الشخص الطبيعى . وكلما كثر عددها قلت قدرة الرجل على الإخصاب . أما الحيوان المتواضع الكائن إلى أقصى يسار الصورة فهو صاحب القدح المعلى فى عملية التلقيح . وهو الذى يتقدم فى ثبات مخترقا عنق الرحم ثم تجويفه ، ويقابل أليفته فى البوق الموصل بين الرحم والمبيض ، ويعود بها بعد أن يتآلفا ويتمازجا ، إلى الرحم حيث تستقر البويضة الملقحة فى جداره وتأخذ فى النمو تدريجيا لتستمر فى حياة تبدأ من ظلام الأرحام لتنتهى إلى ظلام آخر ، كفانا الله وإياكم شره .